

الأستاذ المثقف والجامعة المبدعة

قراءة في ثنائية العلم والثقافة

أ.د. باسم الاعسم

- * ما علاقة الجامعة بالثقافة ؟
- * ما نوع الثقافة التي تنتجها الجامعة ؟
- * هل بوسع الجامعة أن تكون حاضنة للثقافة والمثقفين بوصفها مؤسسة بحثية في المقام الأول ؟
- * أو أن تكون ظهيراً سانداً للثقافة ومؤسساتها ما دامت تعنى بانتاج العلم والفكر والمعرفة ؟
- * هل أن ثمة تداخل مفاهيمي بين العلم والثقافة من شأنه تعميق عرى الاتصال بينهما ؟
- * ما السبل المتاحة لأزدهار الخطاب الفكري والثقافي ضمن فضاءات المؤسسة الجامعية الاكاديمية ؟!
- * ما مؤهلات الاستاذ المثقف ؟ والجامعة المبدعة ؟!

لكي تكتسب الأجابة مصداقيتها ، فلا مناص من النظر – بموضوعية – الى واقع المؤسسة الجامعية التي طالما تعكزت إبان النظام السابق – على العلمي لتمرير السياسي ، بمعنى ، إن وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – آنذاك – قد علمت على تنفيذ استراتيجية تخريبية ، هدفها إقصاء العلماء واحتواء الجهلاء ، وهذا أخطر داء .

وإن ما قامت به جامعة بغداد بهذا الصدد ، عندما منحت الشهادات العليا لرموز النظام البائد وبالمجان . فضلاً عن الكتب والمؤتمرات والندوات التي عمقت التوجه السياسي المؤدلج ، الذي يتقاطع مع النهج العلمي للمؤسسة الجامعية ، يؤيد صحة ما ذهبنا اليه ، مع يقيننا الأكيد أن الوزارة - آنذاك - لم تقو على الانفلات من قبضة النظام ، فسعت باتجاه اسقاط الفرض ، وارضاء النظام ، على حساب العلم والبحث العلمي والعلماء ثم أن القرار المرتجل والمتعلق باستحداث الاعداد الغفيرة من الجامعات ، قد لبي اجنذة النظام السياسي ، وليس النظام التعليمي ، ولأعتبرات سياسية ، وامنية ، فتعاظمت من جراء ذلك القرار ، نسبة البطالة ، وضربت الاوامر والتعليمات الجامعية عرض الحائط ، مما انعكس ذلك بشكل جلي على مسار العملية التربوية والتعليمية ومخرجاتها ، فأنحسر العلم ، وغيب العلماء ، وانتفت الثقافة الجامعية والنقد الأكاديمي من جراء سياسة التجهيل ، التي دفعت خيرة الاساتذة الى الهجرة خارج البلاد .

ثم تحولت الجامعات من مراكز بحثية علمية الى مراكز تدريبية مدججة بالأسلحة والأعتدة ، فضاءت فضاءات العلم ، والمعرفة والثقافة ، في ما اتسعت مساحات الجهل والاقصاء ، مما يفسر لنا حجم التآمر الخسيس ضد العقل العراقي المبدع ، وضد الاستاذ المثقف حصراً ، الى جانب الحروب ، والحصارات الاقتصادية والعلمية والثقافية ، التي ألقت بضلالها على المؤسسات العلمية والتربوية وفي مقدمتها : الجامعات بوصفها مراكز اشعاع وتنوير .

وعقب سقوط النظام تنفس أساتذة الجامعات الصعداء ، فمورست - لأول مرة - في تاريخ العراق والتعليم العالي تجربة الانتخابات الديمقراطية الحرة التي أحدثت انعطافه نوعية متقدمة في مسار التعليم العالي والبحث العلمي ، فقد دفع العمداء المنتخبين - وانا منهم - راحتهم وزمنهم ثمناً من أجل إعادة أعمار الجامعات بكلياتها ، فأزدهرت الثقافة وتنامت وتائر الأنشطة والفعاليات العلمية والادبية والفنية وبضمنها إقامة معارض الكتب واصدار المجالات العلمية المحكمة وسوى ذلك .

ولنا في جامعة القادسية خير مثال ناصع بهذا الصدد ، إذ تحمّل الأساتذة المنتخبين وزر الارتقاء بالجامعة وترصين المستوى العلمي واستعادة بعض ممتلكات الجامعة التي سرقت وابدى الاساتذة والعمداء جرأة استثنائية تمثلت في تلك المواقف المشرفة التي اعادتها الى الكليات التي ضربت وانتهكت هيبتها وفي وقتها تحولت كلية الآداب - الذي كنت عميدها - الى ورشة علم وأدب وثقافة يقصدها القاصي والداني ، ولنا في هذا القول شهود أحياء ، من موظفين وأساتذة أجلاء ، إذ تعد تجربة بعض أساتذة كلية الآداب مثلاً ناصعاً يحتذى في البناء والاعمار ، وفي الحفاظ على الممتلكات العامة ، وأضابير الأساتذة والموظفين ، وتهيئة القاعات الدراسية ، وإقامة معارض الكتاب . فضلاً عن الأنشطة العلمية والأدبية الغزيرة .

وكان الدافع الحقيقي وراء هذه المواقف المشرفة هو الأستاذ المثقف الذي ينتمي بصدق الى كليته وجامعته وطلبته ، من دون إدعاء أو تكبواً أو رياء .

وما دمنا بصدد ثنائية الجامعة والثقافة نقول : طالما عانى المشهد الثقافي ضمن فضاء الجامعة من سبات طويل ، إذ لم يكن دور الجامعة فاعلاً في تنمية وتائر الوعي الثقافي ، بسبب ضعف الصلات بين الجامعة والمجتمع من جهة وبين الجامعة والمؤسسات الثقافية والفنية ومؤسسات المجتمع المدني من جهة اخرى ، لذلك انحسرت مساحة التأثير ، فضلاً عن انشغال أغلبية أساتذة الجامعات بهموم معيشية وليست إبداعية ، مما انعكس ذلك بنحو سلبي على فعالية الاستاذ نفسه وانكفائه على نفسه ، وأما المراكز الثقافية فلا صلة لها بالثقافة إلا بالاسم فقط فهي مراكز اجتماعية حسب .

لذلك ، نأمل من الجامعة الآن ، مزيداً من العمل باتجاه اثراء المشهد الثقافي من خلال إقامة المؤتمرات العلمية والندوات الفكرية ، والحلقات الدراسية ، ذات المحاور المتنوعة ، لاسيما وأن الجامعة تضم نخبة طيبة من الأدباء والكتاب ، مما يؤهلها لأن تصبح جامعة مبدعة بحق .

إن الضرورة العلمية والتاريخية تدعونا لأشاعة الثقافة وارساء أوضاعها الصلدة في ظل المناخ الديمقراطي الذي نعوم في فضاءاته الرحبية .

ولقد أن الأوان لكي تنهض الجامعة بدورها الحضاري في تصعيد وتائر العلم والمعرفة والثقافة الخالصة ، وهذا رهانها الكبير في هذا الطرف العسير بما يعزز الدور الريادي لهذه المؤسسة الاكاديمية ، التي يعول عليها الجميع في بناء المجتمع ، والارتقاء بوعي وذائقة الناس ، داخل وخارج اروقة الجامعة .

ولكي تكون الجامعة مبدعة ، لابد أن تحتفي بالاستاذ المثقف ، والطالب المحصن بالعلم والمعرفة ، والمنهج المتطور ، والمكتبات العامرة ، والمختبرات الصالحة ، والقاعات الدراسية المؤهلة ، والفضاءات الجميلة .

إن الجامعات ، لم تستحدث ، لكي تلبي حاجات ظرفية ، طارئة ، كما أن مهامها الرئيسية ، لم تنحصر ضمن نطاق إشاعة العلم ، بل هي مراكز اشعاع ثقافي وفكري ومن صلب مهامها بوصفها مؤسسات اكااديمية ذات طابع تربوي ، المساهمة في بناء الشخصية الانسانية وتحسينها من اشكال الفساد والتخلف ، مما يرجح فاعلية الاستاذ الجامعي المثقف أو الفاعل – خاصة – وليس الخامل ودوره الخطير في احداث الانقلاب النوعي في حياة الطلبة والافراد والجماعات الانسانية تجاه بلورة افكار ومفاهيم انسانية خيره تساهم في اعلاء صرح الجامعة الثقافي والحضاري والعلمي .

بهذا الصدد ، نستذكر الاساتذة الاجلاء ذوي الابداعات والكتابات والاختراعات ، الذين رقدوا المكتبات العلمية والادبية بخلاصة كدهم الذهني والفكري الممثل بالرسائل والاطاريح الجامعية الاصيلية وأعداد الكتب المؤلفة الغزيرة في شتى صنوف العلم والفكر والثقافة والفن واللغة والادب .

وبالفعل ، فقد عولت أغلبية دوائر الدولة ومؤسساتها على أساتذة الجامعات في تطوير برامجها التنموية ، ومن ثم ايجاد الحلول الناجعة للمشكلات التي تعاني منها ، بقصد ضمان برمجة خططها السنوية واهدافها الاستراتيجية بعيدة المدى .

فمنذ زمن ليس بالقصير وانا أدعو في مقالاتي وحواراتي الى ضرورة ترسيخ مفهوم الأستاذ المثقف في الجامعات ، إذ لا قيمة علمية ومعرفية واعتبارية للجامعة من دون توفر أساتذة أكفاء لا يكتفون بنيلهم الشهادة الاكاديمية العليا ، أو الالقاب العلمية وانما يعدون الشهادة هي البداية الفعلية في الحياة العملية في رحلة العلم والأدب والثقافة وليست النهاية .

وكما قال عميد الأدب العربي د. طه حسين ، الأستاذ المثقف ساعة نيله شهادة الدكتوراه وبالحرف الواحد قال : ((الآن بدأت)) .

إن الجامعة تسمو بأساتذتها ، حينما يكونوا منتجين ، لا مستهلكين ، وحاضرين لا غائبين ، وناشطين لا خاملين ، يمتلكون الاسلوب الأمثل ، والخلق ، الاجمل ، والوعي الاكمل ، مبدعين لا تقليديين ، يفتحون على الجامعة والمجتمع ، ولا ينغلقون على أنفسهم ، يؤرقهم العطاء الرفيع ، وليس العلاوة والمنصب والترفيح ، ويشغلهم البحث والكتابة ، وليس الاكل والنوم والرتابة .

فالجامعات المبدعة يقودها أساتذة مثقفين أكفاء ، لا تلهيهم عن البحث العلمي وتطوير الجامعة ، المناصب الزائلة ، والامتيازات الآفلة ، أساتذة يشرعون ببناء جامعة يتشبت بها التدريسي ، ويمكث الطالب في قاعاتها ويمرح بأروقنها بحرية ويشعر الموظف بالانتماء الى وحدتها واقسامها بشرف وعشق مبين .

الجامعة المبدعة ، تعقد فيها المؤتمرات العلمية والفكرية والادبية ، على طول السنة الدراسية ، وتكون كأخواتها في الدول المتقدمة محصنة بالعلم والامن والامان ، لاتخترق من أي حزب أو عنوان ، توطد صلاتها مع الجامعات العالمية والرصينة ، وتحذوا حذوها في كل المفاصل العلمية والأدارية .

الجامعة المبدعة ، لا تنتهك فيها حرمة أستاذ ، أو كرامة موظف ، أو سمعة طالب ، فالكل فيها مصان ، لا يضطهد أو يهان ، لأن الجامعة بلا بشر لا تعدوا كونها كومة احجار ، فقيمتها ليست بأمكنتها ، بل بسكانها ، وبمعنى أدق ، بمن يشرف المكان ، ويشرف في الانتماء اليه ، لا أن يسيء الى نفسه ومكانه ، ومكانته ، بالاقوال المهينة ، والافعال المشينة ، فخلق الأستاذ رصيده الذي لا ينضب ، والجامعة ، مؤسسة علمية ، واخلاقية ، ذات طابع تربوي ، تستقطب الأختيار وتنبذ الاشرار .

الجامعة المبدعة ، مبدعة بمخبراتها ، ومكتباتها ، والمراكز الاستشارية فيها واعلامها المستقل.

الجامعة المبدعة .. تغذي المجتمع بالكفاءات المبدعة ، لا أن تضاعف حجم البطالة فيه ، بل تحسب حساب مخرجاتها ، بحيث تكون جزءاً من الحل ، لا أن تكون جزءاً من الأزمة .

الجامعة المبدعة ... تعجل في ترقية أساتذتها وتبتكر أفضل الوسائل لتحقيق هذه الغاية العلمية الجليلة ، لا أن تبتكر العراقيل لتحرم أساتذتها من حقهم المشروع ، كما كان واقعاً في السنوات السابقة ، إذ تتأخر ترقية التدريسي سنوات عجاف ، وبذرائع شتى ، كان من نتائجها ، أن ينتظر التدريسي ست سنوات أو عقد من السنين ، لكي ينال حقه لا غير ، وفي جامعتنا كثر ممن زهقت أرواحهم من شيء أسمه الترقية فتفاقت الأزمة لكنها أنفجرت بجهود رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور احسان القرشي .

إن الأستاذ الجامعي الحق ، هو من يكون مع الحق ، لا يسيل لعابه على ما يسيء الى سمعته ، التي هي رأسماله الثمين ، ولا يعادلها اللقب أو المنصب ، يجل درسه ، ويحترم نفسه ، فيكبحها حين تدفعه الغرائز الحيوانية الى ارتكاب المعاصي .

الأستاذ الجامعي الأصيل ، ينبغي أن يكون جامعاً للعلم والمعرفة والثقافة ، وليس أستاذاً متمرساً في القيل والقال يؤرقه المنصب ويغريه المال .

الأستاذ الجامعي الأصيل ، يقرأ كثيراً ويكتب قليلاً ، مثلما طه حسين ، لا أن يعتاش على مدخراته العتيقة الآفلة ومعلوماته الشحيحة الزائلة ، يفرحه من هو أرقى منه ، ويؤلمه من هو أدنى منه علماً وخلقاً ، وينتشي إذا أرتقى طالبة .

الأستاذ الجامعي ، شاهق المقام ، جميل الهندام ، يفكر بانتظام .. مدادة العقل ، يرنو الى الامام ، منطقته جميل ، وفعله جليل ، فلا قيمة للجامعة من دونه ، فهو السراج المنير ، الذي يضيء من فيض علمه ، ويدنو من العظام ، بخلقه وحلمه ، لا بفضل لقبه وأسمه ، حكيم إذا قال ، لثيم إذا مال .